الشعر المصرى فى مائة عام

الأستاذ محمد سيد كيلانى

الدور الأول

١٨٥٠ — ١٨٨٢

٣

١ — أغراضه

بقيت أغراض الشعر فى هذا الدور كما كانت عليه من قبل. فكان باب المدح يحتل معظم ديوان الشاعر، فالشاعر فى هذا العصر مداح ليس إلا، يعيش ليمدح هذا وذاك، وينظم القصائد الطوال فى الإشادة بمناقب هذا الأمير أو ذاك الوزير، راجيا صلة أو وظيفة أو ترقية أو علاوة. فإن رأيت شيئا غير المدح فهو قليل لا يكاد يذكر. وكانت قصائد المدح تبدأ غالبا بغزل متكلف مصطنع.

وكانوا يبدأون قصائد الرثاء بالتحدث عن الموت الذى يسطو على الناس فيختار الجياد منهم. ويشيرون إلى هلاك الملوك وفناء العظماء. ويذكرون استحالة البقاء وأن الموت غاية كل حى، وطريق تسير فيه السادة والعبيد، والأغنياء والفقراء، والعساكر والأمراء. ثم ينتقلون من هذا إلى ذكر مناقب الفقيد والتنويه بمزاياه وصفاته. ثم يختم الرثاء بإشارة موجزة إلى ما أعد للفقيد فى الجنة من نعيم مقيم وحور عين. ومثال ذلك قول البيتى فى رثاء عبد الله فكرى:

ومن بان عنا فى الفراديس ناعم ... بظل ظليل دوحه يتهدل
ينازل ولدانا وحورا على صفا ... وفى حسنها من لطفه يتنزل
تبارك من قد خاره لجواره ... وخيره فى أنعم تتذلل

وإذا رثى الشاعر زوجته أو ابنه أو بنته أو أباه وصف أدوار المرض التى تقلب فيها الميت وأشار إلى الطبيب وما قام به من علاج، ومثال ذلك قول صالح مجدى يرثى زوجته:

ولا كان «بدر» جاء يحيى موانها ... بطب عسيف كان فيه أذاها
فإن انصباب الماء من فوق رأسها ... على رغم أنف كان فيه بلاها
وفى الأخذ منها للاماء مدامس ... رويت كل أرض لا يقاس قضاها
وفى الطرد للموضوع من فوق ساقها ... شواظ يقلب فيه شديد حماها

وهكذا قص علينا الشاعر ما حدث لزوجته إبان مرضها، مستمدا القول من الواقع لا من الخيال. وهذه طريقة جديدة فى الرثاء لم تعرف من قبل.

ومنذ عصر سعيد بدأ الشعراء يصفون بعض المخترعات الحديثة كالسفن البخارية وآلات الرى والأسلاك البرقية والسكك الحديدية والكبارى والقطر وغير ذلك مما ظهر وقتئذ. ولكن الشعر الذى قيل فى هذا الغرض كان قليلا جدا.

وكان بعض الشعراء فى هذا الدور إذا وصف حفلة من الحفلات أو مشهدا من المشاهد انغمس فى الواقعية إلى أبعد حد، وحرص على أن يسجل فى شعره كل صغيرة وكبيرة مما تراه عينه. ومثال ذلك قول عبد الله فكرى حينما عاد من مؤتمر المستشرقين:

مولاى قد سرنا بأمرك نبتغى ... لرضاك ما تسمو به الأقدار

ومنها:

ثم انتطينا للسويد ركائبا ... لا الركض يجهدها ولا التسيار
تسعى على عجل إلى غاياتها ... كالماء ساعد جريه التيار
سرنا بهن على الحشى فأصبحت ... فى «استكهلم» وقد بدا الإسفار
ولقيت صاحب تاجها فى قصره ... والوفد ثم يصحبنى نظار
فدنا وصافح باليمين مرددا ... شكر الخديو يزينه التكرار
فشرحت مقتصدا أجابه بما ... أرضاه لا قل ولا إكثار

وهذه الطريقة الواقعية التى أغرم بها بعض الشعراء فى ذلك العصر قد جعلت قصائدهم شبيهة بالتقارير التى يدون فيها كل شىء مع مراعاة الترتيب الزمانى والمكانى.

وفى عصر سعيد كثر إقبال الشعراء على نظم الأناشيد العسكرية الحماسية وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. وأخذ بعضهم يصف القلاع والحصون ويذكر البنادق والمدافع.

وفى عهد اسماعيل تأثر الشعراء بالحياة الاجتماعية الجديدة فذكروا القصور والبساتين والشوارع والميادين ومصالح الحكومة ودواوينها. وأخذوا يشيرون إلى إضاءة المدينة بمصابيح الغاز وتوصيل المياه إلى المنازل وغير ذلك من مظاهر الحضارة والعمران.

وفى أواخر هذا العصر بدأ الشعر السياسى فى الظهور. ورأينا قصائد قليلة تنظم فى نقد المجتمع وفى الشكوى من تغلغل النفوذ الأجنبى.

وحينما تولى توفيق ارتفعت أصوات الشعراء مطالبين بالإصلاح ورفع المظالم التى حاقت بالشعب. وهكذا أصبح الشعراء ينظرون

إلى الصالح العام بعد أن كانوا ينظرون إلى صالح أنفسهم . ولكن يجب أن نقول بأن النظرة الذاتية كانت غالبة فتأمل في قول الساعاتي حين يمدح اسماعيل صديق فيقول :

وحسبك بالاجماع منا فصادح ... بحمدك غريد وآخر باغم

وقد أجمع الناس واتفقت كلمة المؤرخين من مصريين وأجانب على أن اسماعيل صديق كان مثالا للظلم والقسوة وعلى أنه هو الذي جر البلاد إلى الخراب والدمار وأرهق الفلاحين وأثقل كاهلهم بالضرائب الفادحة . ولكن الساعاتي لم ير بأسا في الكذب ولم يجد ضيرا في الافتراء . فهو في نظير مصلحة يرجوها أو عطاء يؤمله قد صور الناس مجمعين على الثنى بفضائل اسماعيل والإشادة بمناقبه . على أن هـذه النظرة الذاتية والتضحية بمصلحة المجتمع في سبيل مصلحة الشاعر قد لازمت الشعراء المصريين حتى هذه الأيام .

وقلت المدائح النبوية في هذا الدور حتى أننا لا نجد للشعراء في هذا الباب شيئا ذا قيمة اللهم إلا قصيدة بديعية للساعاتي ضمنها مائة وخمسين نوعا من أنواع البديع .

وظهرت في عهد اسماعيل الأناشيد المدرسية التي يلقيها الطلبة في الحفلات . وفي هذه الأناشيد إشادة بقيمة العلم ومنافعه للأمم والشعوب والترغيب في الجد والاجتهاد والاستعداد ليوم الامتحان الذي يكرم المرء فيه أو يهان كما كانوا يقولون .

وفي هـذا العصر أكثر الشعراء من نظم التواريخ وذلك لكثرة ما أقيم من المعاهد والمدارس والمصانع والقلاع والحصون والقصور والمساجد ، وقد أرخ الشعراء حفلات أنجال اسماعيل في شعر كثير .

وحينما نشبت الحرب بين الانجليز والعرابيين انضم إلى الحركة العرابية شعراء كثيرون في القاهرة والأرياف وأخذ هؤلاء الشعراء ينظمون القصائد الحماسية في الحض على الجهاد والتحريض على الكفاح وفي هجاء الإنجليز وكل من يتعاون معهم . ومن هؤلاء الشعراء محمد النجار وله قصيدة جاء فيها « والخطاب لعرابي » :

فازحف بجيشك يا مظفر ضاربا ... في الانجليز وقاتلا سيموروا
واقطع بسيفك أمة قد أسرفوا ... انى عليهم إذ عدمن ذكورا

ومنها في هجاء الانجليز .

قوم تربوا في الثلوج فطبعهم ... يهوى البرود ولا يطيق حرورا
كتبوا لسيدة لهم أن جهزي ... غنما لعيد المسلمين كثيرا
يا انجليز ومن ينادي ميتا ... يخطي وكيف أخاطب المقبورا

ولأحمد عبد الغني قصيدة مطلعها :

لعمرك ليس ذا وقت التصابي ... ولا وقت الهجاع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوي ... ولا وقت التثاقل والتنابي
ولا وقت التشبب في سليمى ... ولا وقت التشاغل بالرباب

إلى أن قال :

ولكن ذا زمان الجد وافى ... وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت الاتحاد مع التصافي ... وعقد عرى الإخاء والانتساب
ووقت ليس فيه يليق إلا الـ ... إقامة بالقـــلاع وبالطوابي
ووقت فيه الاستعداد فرض ... لتنفيذ الأوامر من عرابي

وامتازت هذه القصائد بظهور العاطفة الوطنية فيها ظهورا لم يعرف من قبل . ولو طال أمد الحرب بين المصريين والبريطانيين لاستفاد الشعر كثيرا . ولكن الحرب انتهت في مدة وجيزة ، لذلك انطفأت هذه الجذوة بانتهاء الحرب .

ولما قضي على الحركة العرابية أخذ شعراء الخديو ينظمون القصائد في مدحه ، وقد مزجوا هذا المدح بالتحريض على التنكيل بالعرابيين وأطلقوا عليهم اسم « العساة » و « البناة » . ومن أشهر ما نظم في هـذا الغرض قصيدة لمصطفى صبحي باشا دعاها « صدق المقال في مثالب البناة الجهال » قال إنه ذكر فيها « دسائس الأشقياء الملحدين ، ومفاسد الأغبياء المتمردين وكيف قابلوا الإحسان بالكفران والنعمة بالطغيان من مبدإ أمرهم ليوم سفرهم » ومطلعها :

تبين عقبي غيه كل معتدى ... وأمسى العرابي وهو بالذل مرتدى
يعض بنان المستكين ندامة ... ويقرع بالاذلال سن المهند

وعقيب انهيار الحركة العرابية أقبل الشعراء الذين كانوا قد انضموا إليها على نظم القصائد في الاعتذار مما فرط منهم والتنصل مما عزي إليهم من تهمة الاشتراك في حركة العصيان .

* * *